مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 19 العدد01 2023/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لُغة الجسد وجسد اللُّغة عند ابن جنّي(ت 392هـ).

رؤية تواصلية، وانثروبولوجية.

Body language and language's body according to Ibn Jinni (d. 392 AH). A communicative and anthropological vision.

د. بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء*

جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان–الجزائر

imane13b@gmail.com

تاريخ الاستلام 2021/09/10 تاريخ القبول: 2021/11/11

ملخص:

إنّ إلقاء نظرة على التراث اللغوي والأدبي العربي يؤكّد على الحظوة الخطابية التي تمتّع بها موضوع الجسد بوصفه موضوعا لغويا وأدبيا ودينيا، ويسعى هذا البحث إلى تقديم رؤية تواصلية للغة الجسد عند ابن جني من خلال دراسة انثروبولجية لوظائف الجسد في التواصل اللّغوي، وقد وجد البحث أن ابن جنّي قد وفى لغة الجسد حقّها بحثا، وأنزلها منزلتها دراسة وتبيانا، وقد برز توظيف لغة الجسد عند ابن جني في الحذف، فتوظيف تعابير الوجه عنده ما يغني عن اللفظ فيقوم مقامه، كما وجدنا ابن جنّي مهتمّا بوظائف العين وكدا اقتران السمع بالنظر، أيضا ارتبطت لغة الجسد عنده بالسلوك الحركي لليد والوجه.

ومن هنا تبين لنا دور لغة الجسد في نقل الصورة من المعنى إلى المحسوس بصورة أدقّ تجعلنا نعيش المشهد ونعاينه.

الكلمات الدالة: لغة الجسد.، ابن جني .، انتروبولوجيا.، وظائف .، التواصل.

Abstract:

This research presents a communicative vision of Ibn Jinni's body language through an anthropological study of the functions of the body in

* **المؤلف المرسل**: بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء ، **الايميل**: imane13b@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

linguistic communication. The use of facial expressions for him dispenses with pronunciation, so it takes its place.

Ibn Jinni is interested in the functions of the eye and the association of hearing and sight. Thus, the role of body language is shown to us in transferring the image from meaning to tangible in a more precise way that makes us experience the scene and examine it.

Keywords: body language Ibn Jinni; anthropology; functions communication.

مقدمة:

يشكل الجسد منبع الحياة والحركة والفعل والوعي، وهو مكتسب قبلي سابق على كل روح، وباعتباره رمز الوجود فهو يمثل مركز الكون ومقاسه الضروري، والحقيقة أن وجود الإنسان يكمن في قدرته على التعبير من ثمة فإن الجسد يُمَسرح تعبيراته عبر صور متعددة فمنها تعابير الوجه، ومنها حركات الممثل والرياضي، كذلك يتبدى في عمل اليدوي، ولغة الصم، وكل منها يخضع لعملية الاتصال بين ذلك المرسل والمرسل إليه رغم اختلاف الطرق، وسنحاول تتبع بعض ما تناولته كتب التراث، بالأخص لغة الجسد في خصائص ابن جني، وفق منهج وصفي تحليلي محاولين الإجابة على عدّة إشكاليات أبرزها، هل كان للغة الجسد حضورا في خصائص ابن جني؟ وكيف تم توظيفها لغويا، وأنتروبولوجيا؟ وماهي أهم خصائصها؟

أولا: لغة الجسد في ضوء نظرية الاتصال الحديثة:

إنّ الانطباعات المتبادلة بين المرسل والمتلقي تكون عن طريق الصورة التي يمثلها الجسد، وهذا ما يؤكده بروك قائلا : "... ففي اللحظة التي يشرع فيها إنسان في التعبير عن صورة في اللحظة نفسها، فإنّ الإنسان الآخر يشاركه الاقتناع، هذا الارتباط المشترك هو اللغة، وإذا لم يثر هذا الارتباط شيئا عند الإنسان للآخر، وإذا لم تكن ثمة لحظةٌ من الوهم المشترك، فليس ثمة شيءٌ متبادل" (بروك، 1986، صفحة 122).

حيث يبدأ المتلقي في تفسير الدلالات والوصول إلى المعاني التي يرسلها اللفظ وذلك بعد أن يخلق نوعا من الصلة الإدراكية التي يتواصل بها مع المرسل، لا سيما أن الحركة معبرة عن دلالة معينة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إنّ " ...الجسد هو السطح الذي تنقش عليه الأحداث نفسها" والذي تَقتفِي آثَارَه اللغة، وتقوضه الأفكار.." (مدحت، 1996، صفحة 53)

ومن ثم فإنّ علم الدلالة أداة تحليلية تعنى بالترتيب الشكلي لكل من النص المكتوب، واللغة الجسدية، وذلك من خلال المنظومات الدلالية التي تصنع كل منها، على أساس ديناميات بناء المعنى، ولذا فهو لا يستخلص المعاني وحسب، لكنه يهتم بالأساليب التي يتم بها بناء هذا المعنى، انطلاقا من مفهومه العام للغة سواء كانت منطوقة أو غير منطوقة، على أنّها عبارة عن نظام من الإشارات يتواصل الناس عن طريقه، ومن ثم فإن التغيير الدلالي ليس إلا تغييرا في المعنى الذي يرتبط بالسياق الذي يقدم من خلاله، حيث تكتسب اللغة قيمة دلالية محددة، تتغير استنادا إلى عوامل نفسية، واجتماعية، وفلسفية، وأنثروبولوجية. وهذه اللغة بشكل عام يعتبرها فرديناند دي سوسير Ferdinand de-Saussure : "أحد نظم العلامات تصور فيها العلاقة اللغوية بدورها على أساس ثنائي دال signifie ومدلول signifiant"،(Ferdinand de-Saussure) (de-Saussure، 1987، صفحة 86)

لذا فإن العلامة عنده تقرن مفهوما دائما بصورة حسية يتولى الجسد إبرازها، وتترك في المتلقي أثرا نفسيا مما يمكن معه القول إن منطق اللغة الجسدية للمرسل يربط بين الصورة الحسية التي هي الدال وبين مفهومها الذهني وهو المدلول، ولما كان الدال والمدلول في نظر سوسير اعتباطيين لارتباطهما بالدافع، نجد أن اللغة الجسدية للإنسان لها القدرة على أن تكون نظما متعددة، تقوم هذه النظم بدورها بتغيير الدلالات التي تولدها.

ولما كانت دلالات اللغة الجسدية تتسم بقصدية الاتصال مع متلقيها، فإنها تقوم مقام الرسائل المعقدة التي تخضع بقوانين الاتصال وعناصره التي تتمثل في:

الرسالة : وهي المعنى المراد توصيله

المرسل : وهو الباثّ الذي يريد إيصال معنى الرسالة.

المرسل إليه : وهو المتلقي الذي يشارك في توليد المعنى.

كان شارل دارون، صاحب نظرية التطوّر، أول من دعا إلى الاهتمام بلغة الجسد، وذلك لما لهذه اللّغة من دور مميّز في تطوّر الكائنات الحية، غير أن أهميتها، كما رآها الآخرون من بعده، لا تقع في

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

علاقاتها بتطوّر الكائنات فحسب، إنما تأتي أيضا من أهميتها في التناقل والتفاعل اليومي بين البشر (الخوري، 2011).

أولا : الجسد باعتباره موضوعا أدبيا:

لا إخالنا نبالغ إذا قلنا إنّ تتبّعا بسيطا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المخصّصة للجسد والمرأة ومسائل النكاح، ونظرة خاطفة على كتب الآداب المتخصّصة، وكذا تصفّحا سريعا لما تخصّصه كتب اللغة والفروق لأسماء الجسد وما تداوله العرب من أخبار النساء على نحو ما فعل الأصمعي وأضرابه، لَيُؤَكّد على الحظوة الخطابية التي تمتّع بها موضوع الجسد بوصفه موضوعا لغويا وأدبيا ودينيا؛ لا بوصفه موضوعا اجتماعيا انسانيا، ولعلّ هذا هو ما تناوله ابن قيم في بعض ما كتب من مؤلّفات مثل كتابه روضه المحبّين، وأخبار النساء وغيرهما، ينظر: (الأصمعي، 1987، صفحة 55) وينظر: (الجوزية، 1987، صفحة 17) . وإذا رجعنا إلى أدبنا العربي القديم وجدنا نماذج كثيرة تعنى بهذا الجانب أيّما عناية، ولعلّ نصّا واحدا يلخّص هذه المسألة من أساسها، فقد روى ابن عبد ربّه نصّا عرض فيه لجملة من النعوت تحلّت بها امرأة هي ابنة عوف حين وصفوها لملك كندة في الجاهلية، فكان ما جاء في الوصف أنّ الراوية قالت للملك:"رأيتُ جبهة كالمرآة الصقيلة زينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة إن أرسلتْهُ خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل، ومعه حاجبان كأنّهما خُطّا بقلم أو سُوّدا بفحم، قد تقوّسا على مثل عين العبهرة- البقرة الوحشية- التي لم يرعَها قانص، ولم يذرْها قسورة -أسد- بينهما أنفٌ كحدّ السيف المصقول، لم يخنس - يتأخّر — به قصر ولم يمعن به طول، حُفّت به وجنتان..." (ابن عبد ربه، صفحة 85).

وهكذا يمضي الوصف إلى أن يستكمل جميع الجسد، وهو نموذج حيّ يعرب فعلا عن تناول الجسد باعتباره موضوعا لغويا، ناهيك عن كونه خطابا فلسفيا ، أو خطابا انثروبولوجيا، أو أخلاقيا أو انسانيا.

ثانيا: خصائص لغة الجسد عند ابن جني:

إنّ اللّغة عبارة عن أصوات يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم، إنّ هذا التعريف لابن جنّي(ت 392هـ) يقودنا إلى الغوص في معناه لنجده يَشِفّ عن معنى ظاهر ومعنى خفي، ولعلّ الأول يتعيّن في جسد اللّغة فهو مُؤتلف من مستويات لُغوية وكلّ مستوى يُفضي إلى معنى قائم برأسه فثمّ مُستوى دلالي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ومستوى تركيبي، بيد أن هذا الجسد لا بُدَّ له من محيط يشتمل عليه، ويُؤثر فيه، ومن هنا يأتي دور تلك الأعضاء المتكاملة التي تتجلى في لغة الجسد، وبدا يكون المعنى مُؤتلفا من الرَّافدين: المعنى المقاليّ، والمعنى المقاميّ، ليغدو بذلك لُغَةَ الجسد، وهنا يتجلى المعنى الثاني.

فتعريف ابن جني يندرج ضمن باب تسمية الكل بالجزء فتلك الأصوات تستوجب توظيف أعضاء الجسد كاللسان والأسنان، والشفاه...فلغة الجسد تفضي إلى جسد اللّغة فهما يتضافران لتأدية المعنى فالحديث الكلاميُّ يفقد كثيرا أو قليلا من دلالته دون تعابير جسدية وفي ذلك يقول ابن جنّي:" أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوُجوه، وجعلها دليلا على ما في النّفوس، وعلى ذلك قالوا : رُبَّ إشارة أبلغ من عبارة". (ابن جني، صفحة 60/2).

1- الحذف عند ابن جني :

يُلح ابن جنّي إلحاحا بينا على دلالة لغة الجسد في التواصل والإبانة، خاصة الوجوه فهي دليل على ما في النّفوس، والوجه يحوى العديد الحركات الجسدية، ففي الوجه العين، والخدّ، والفم، واللسان، والحاجب، والشفاه، وتقدّم كلّ هذه الجوارح معان متعددة.

يبرز توظيف لغة الجسد عند ابن جني في الحذف، فقد يكون في الجُملة، والمفردة، والحَرف، والحركة، ومن ذلك حذف الصِّفة وقيام قرائن متضافرة مقامها لِلاعتياضِ والإبانةِ، وذلك أنك تحس في الكلام القائل لذلك من التفخيم والتعظيم وحركة الجوارح أو تعابير الوجه ما يغني عن اللفظ فيقوم مقام قوله، نحو:" سَألناه فَوجَدناه إنسانًا!" (ابن جني، صفحة 355/2)، فهذه العبارة، وهي منسلخة من سياقها قد تؤدي معناه بمعيّة حركات الجسد للمرسل، وبذلك قد يكون المحذوف إنسانا شجاعا أو كريما أو نحو ذلك.

وقد يكون المحذوفُ بالضّدِّ، فتغدو الحَركات الجسديةُ دالّة على صِفة أخرى غير المتقدّمة، كتقطيب الوَجه، والامتعاضِ، وإنغاص الرّأس، وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضّيق، قُلتَ: سألناه وكان إنسانا! وَتُزوي وَجهك، وتُقطّبُه، فَيغني ذلك عن قولك: إنسانا لئيما، أو لَحِزا، أو مبخّلا، أو نحو ذلك" (ابن جني ع.، صفحة 355/2)وينظر: (عرار، 2007، صفحة 126) ، فالوجه أبرز ما في الإنسان؛ لذا عُبِّر به عن الشرف والسيادة وعُلُوِّ القدر ولقد" صدق عبد الله بن سلام حين ذهب للقاء النبي صلى

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الله عليه وسلم فقال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم فجئت في النّاس لأنظُر إليه، فلّما استثبت وَجه رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم عرَفتُ أنّ وجههُ ليسَ بِوجهِ كذّاب" (داود، 2006، صفحة 60)، وعُبر به عن نقيض ذلك من الصفات والخصائص الدالة عن مشاعر السخط والغضب، "وقطوب الوجه من ضيق الصدر" (العبد، 2007، صفحة 162)، فالوجه مرآة الإنسان وهويته وعنوانه، لذا كُنِيَ به في العربية عن الذات، وعن القصد والغاية، فهو يكشف عن باطن المرء ويشي بما في سريرته، ولعلّ تقطّيب الوجه هنا قصد به تقطّيب الجبين.

وقد سبقه في ذلك صاحب الكتاب :" سِير عَلَيهِ لَيلٌ"، وأراد بذلك "لَيلٌ طوِيلٌ"، وكأنّ هذا وإنّما حذفت فيه الصّفة لما دلَّ من الحال على موضعها؛ وذلك أنّك تحسُّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طَويل أو نحو ذلك، والحق أنّ التنغيم وحدَه في مثل هذا لا يُغني عن أداء المعنى، ولكنّه يتضافر مع حَركات جسديّة متعددّة قد تقوم مقام الصّفة المحذوفة، فقد يكون اللّيلُ قصيرًا يسيرا فيأتي بحركات لها دلالة كدلالة هذه الصّفة المحذوفِ الكَلاميّ (عرار، البيان بلا لسان ، صفحة 126)

2– خصائص إيماءة العَين عند ابن جني:

حظيت العين بنصيب وافر من تعبيرات الجسد، فقد وردت كلمة (عين) وملحقاتها (الطّرف، النظر،الجفن، المحجر،الحاجب)، فالعين نافذة الإنسان إلى الوجوه، والوسيلة الأولى من وسائل الإدراك، وهي أعظم هذه الوسائل وأوسعها مدًى، وأشدّها حساسية.

ولا غروَ إذا تغنّى بها الشعراء على مدى العصور وفي جميع اللّغات، ولو جُمع ما قيل في العيون من أشعار لما كَفته المجلدات، ومن ذلك قول جرير: (جرير، صفحة 452)

إنّ العيونَ التّي في طرفِها حَوَرٌ قَتَلنَنا ثُمَّ لَم يُحْيين قَتلانا

وقول علي بن الجهم:

عُيونُ المهَا بينَ الرّصافة والجسرِ جلبنَ الهوى من حيث أَدري ولا أدري

(الجهم، صفحة 252)؛ فالعين هي رسول المشاعر، وهي الذات والجوهر، والحقيقة واليقين؛ فهاهو أبو طالب، ذلك العم الحنون المشفق لم يجد على ابن أخيه خيرا من أن يقول له: لولا أن تُعَيّرني قريش لأقررت بها عينك! (مسلم، صفحة حديث رقم 37)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أمّا أبو نواس فقد جعل للعين لُغةً خاصّةً، ولعلّ في شعره تأصيلاً للغة الجسد، أو لغة العيون، فقد صرّح به، وأتى عليه في مُقطّعه، ذاهبا إلى أنّ هذه اللّغة من أجَلّ اللّغات، بل اللّغات كُلّها تَسجُد بهذه اللّغة العالمية التّواصلية. (عرار أ.، صفحة 285)

قال الشاعر : تَجمعُ عَيني وعَينَها لُغـةٌ مُخالِف لَفظُها لِمَعناهـا

إذا اقتضاها طَرفي لها عِدة عرفت مردودها بفحواها

ذي لغةٌ تَسجُدُ اللّغاتُ لهـا أَلغَزَها عاشقٌ وَعَمّـاها

(أبو النواس، 1962، صفحة 671)

والتراث العربي حافل بذكر العيون، حتى جاء الكثير من الكتب العظيمة معنونة بالعيون، مثل: "عيون الأخبار" لابن قتيبة، "عيون الأنباء" لابن أبي أصيبة.

3- الرؤية عند ابن جني:

قال ابن جني: " قال لي بعض مشايخنا أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة" (ابن جني ع.، صفحة 247/1)، ولعل ربطه إحساس المتكلم بالضوء، أي بالرؤية، لأنّ المتكلّم يَرى في وجه سَامعِهِ أثر كلامه، ويتاح لأحدهما آنذاك أن يرى فاعلية إشارات الآخر وحركاته وتعبيراته، في توجيه مجرى الخطاب وسياسة الموقف الاتصالي على نحو آخر (العبد، العبارة والإشارة ، صفحة 136)، ويذكر المحدثون أنّ المتخاطبَيْن يتبادلان النّظرات في تواصلهما الكلامي الحَيّ تبادلا مقداره(30‰ - 60‰) من مُدة وقت الحدث الكلاميّ، وإذ ما زاد ذلك النّظر على الحدّ الأعلى الذي هو (60 ‰) فإن لذلك دلالاتٍ مخصوصةً منها أن يكون اهتمام أحدهما بالشّخص لا بما يقول، أو بخصوص الحدث الكلامي وأهميته (البيان بلا لسان، صفحة 129)

ثالثا: لغة الجسد وموضوع المشاهدة عند ابن جني :

1- اقتران معاني الألفاظ بالحضور والمشاهدة:

لطالما وجدنا ابن جنّي مهتمّا باقتران السمع بالنظر، وهو ملمح فريد، إذ فطن إلى اقتران أثر الحضور والمشاهدة في معنى الألفاظ المنقولة وتتبّع هذا في مواطن من كتابه الخصائص، يقول: "... واحتج أبو بكر... بأنّه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

حديثها، ومثلّ له بقولهم " رفع عقيرته" إذا رفع صوته. قال له أبو بكر: لو ذهبنا نشتق لهم (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدا؛ وإنّما هو أنّ رجلاً قُطعت إحدى رجله المعقورة.قال أبو بكر : فقال أبو إسحاق: لست أدفع بهذا. ولذلك قال سيبويه في نحو هذا: أو لأنّ الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال الأوائل" (الخصائص، صفحة 248/1)، وفي المثال الذي ذكره أبو بكر ما يبين العلاقة الوثيقة بين الصوت والصورة أو بين المنطوق و الحركة.

وأوضحه عنترة بقوله:

لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتَكى ولكانَ، ولَو عَلمَ الكلامَ، مُكلّمي

ولم يكن ابن جني بمعزل عن السابقين في هذا المضمار، بل أولى الدارسون منذ وقت مبكّر عنايةً مركّزة بلغة الحركات والإشارات التمثيلية والتعبيرات الجسدية وجعلوها نيابة عن النطق أو الكلام إذا استعصى التصريح، وقد وُجِد في شعرنا العربي ما يؤكّد هذا، فقد ذكر النقاد أبياتا شعرية تنسب لأبي نواس حين طَلَب منه جلساؤه يوما أن يقول شعرا لا قافية له، فانطلق قائلا:

ولقد قلتُ للمليحة قولي مِن بعيد لمن يحبّك: (إشارة قبلـة)

فأشارت بمعصم ثمّ قالت من بعيد خلافَ قولي: (إشارة: لا لا)

فتنفّستُ ساعة ثمّ إنّي قلتُ للبغل عند ذلك (إشارة: امشِ)

– فتعجّب الحاضرون من بداهته فالشاعر استعاض بلغة الجسد والإشارة في هذا المقام، ولم يول اهتماما بما تنقله الألفاظ والكلمات من معاني وأفكار بقدر ما تفعله العين. وهو ما يدور في فلك جعل حسن الإشارة من تمام حسن البيان باللسان يقو ابن رشيق:"وقالوا مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت، فهذا باب تتقدّم الإشارةُ فيه الصوتَ ". (بن رشيق، 2005، صفحة 1/ 256) ، وهو أمر أرسى قواعده الجاحظ من قبل وبيّنه في أكثر من موضع، فالتّواصل قد لا يحدث دوما باللسان أو اللغة، بل يحدث في أحايين كثيرة بعوامل أخرى تغني عن الكلام والقول والتصريح.

وقد تكون للغة الجسد لاسيما العين وظيفةُ الإفصاح والإبانة عمّا في النّفس، فتشكّل معنى في النفس غير الذي تريد البوح به، رُوي عن يزيد بن الحكم أنّه رأى أحدهم يبتسم في وجهه، واستطاع أن يميّز الابتسامة من عدمها، فقال:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تكاشرني نصحا كأنّك ناصح وعينك تبدي أنّ صدءك لي دوِ
لسانك لي أريٌ وغيبك علقم وشرّك مبسوط وخيرك ملتو

(البغدادي، 1986، صفحة 132/3)

كما يروي لنا تراثنا العربي لغة الجسد في حديث اللغويين عن حركة العين وما تؤديه من تواصل على اختلاف حالاتها، حتّى إنّك تجد لكلّ حالة من حالاتها لغتَها الخاصّة بها، فهناك العين الكارهة والمعجبة واللّوامة، والمستوضحة والدائرة والوجلة والمحدّقة وغيرها، وهو ما أوضحه الثعالبي في قوله:"إذا نظر الانسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رمقه، فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل لحظه، فإن نظر إليه بعجلة قيل: لمحه، فإن رماه ببصره مع حدّة نظرٍ قيل: حدجه، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه:(حدِّث القومَ ما حدجوك بأبصارهم)، فإن نظر إليه بشدّة وحدّة قيل: أرشقه وأسفّ النظر إليه، وفي حديث الشّعبي أنّه:(كره أن يُسِفَ الرّجل نظره إلى أمّه وأخته وابنته) (الجوزي، غريب الحديث، 1985، صفحة 1/ 195). والحديث الآخر ينظر: المصدر نفسه، (الجوزي، صفحة 484/1)..." (الثعالبي، 2008، صفحة 138)، وقد جاء في العقد الفريد أنّ:"العين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين، وقد روى الأصمعي عن غيره أنّه قال: إنّي لأعرف في العين إذا عرفت، وأعرف فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر" (ربه، العقد الفريد، 1996، صفحة 115/2)، وقد عقد بابا أسماه:"الاستدلال باللحظ على الضمير"، فالعين ترجمان القلب، والمعربة عمّا يبدو فعلا وعمّا هو مكنون، ومن بلاغة التعبير بالعيون دون الكلام قول بشار بن برد:

ومنتظرٍ رجعَ السلام بطرفه إذا ما انثنى يحكي لنا الغصنَ اللّدنا
إذا جعل اللّحظ الخفيّ كلامَه جعلتُ له عيني لتفهمه أذنا
فلسنا على حمل الرسائل بيننا نريد سوانا مفهِماً حيثما كنّا
كفتنا بلاغات العيون حديثنا فقُمن بحاجات النفوس لنا عنّا

(القيرواني، 1997، صفحة 190/2)، ولعلّ في الشواهد التي جاء بها ابن جنّي في هذا الباب ما يؤكّد فعلا دور هذه اللغة في نقل المعنى والكشف عنه بمنتهى الدّقة والتّصوير:

متى أنامُ لا يؤرقني الكَرِي ليلاً ولا أسمعُ أجراس المِطي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بإشمام القاف من(يؤرقني)، يقول ابن جنيّ:"ومعلوم أنّ هذا الإشمام للعين لا للأذن، وليست هناك حركة البتّة" (ابن جني أ.، 2006، صفحة 93)، وبالتالي فالإشمام الذي هو ضمّ الشفتين دون إحداث صوت أمر يدركه البصير دون الضرير، وعلى هذا الأساس فالإشمام ضرب من الحركات الجسمية عامّة، وحركة الشفاه خاصّة، وذو دلالة نحوية، ولعلّ من لغة الجسد التي نجدها أيضا عنده تلك الإيماءة التي تبديها حركة العين، حيث التفت إلى قضية مهمّة؛ مؤدّاها أنّ اللغة الصامتة من شأنها أن تؤدّي معانيَ مثلما تؤدّيها اللغة الصائتة، إذ استشهد بهذا البيت الشعري:

وقالت له العينان سمعا وطاعة وأبدتْ كمثل الدرّ لمّا يُثقّب

(ابن جني أ.، صفحة 60)، وعلى هذا الأساس فقد أدرك ابن جنّي دلالة قول العينين مشيرا إلى التجوّز الذي يكتنف هذا التركيب، إذ لا قول لهما على الحقيقة، ولكن لغة الجسد، وهيئة العينين في هذا السياق بخاصّة منوطتان بتحقيق معنى الطاعة والولاء، ويشرح ابن جنّي ما ألفاه من معنى مُتخلق من لُغة الجسد في هذا السياقِ بعبارةٍ دالّة مُعجبةٍ قائلا: " فإنّه وإن لم يكن منهما صوتٌ، فإنّ الحال آذنت بأن لو كان لهما جارحة نُطق لقالتا : سمعا وطاعة، وقد حرّر هذا الموضع. (ابن جني أ.، صفحة 60)). وأوضحه عنترة بقوله:

لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتَكى ولكانَ، ولَو عَلمَ الكلامَ، مُكلّمي

وامتثله شاعرنا[يقصد المتنبّي] آخِرا فقال:

فلو قدر السّنان على لسانٍ لقال لك السّنان كما أقول

وقال:

لو تعقل الشّجر التي قابلتها مدّت محيّية إليك الأغصنا.

ومن النصوص التي نقرأها في كتاب الخصائص حول هذه اللغة أيضا ما يجمع بين استماع الأذن ومقابلة العين، يتجلّى واضحا في هذا البيت:

والعين تنطق والأفواه صامتة حتّى ترى من صمير القلب تبيانا

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدّ إذا كانـا

ثمّ نجده يردّد ذلك المعنى الذي يجمع بين الإشارة والقول على نحو ما نراه بوفرة عند الجاحظ وابن رشيق وأضرابهما، حيث يقول:"أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلا على ما في النفوس،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة، وحكاية الكتاب من هذا الحديث، وهي قوله(ألا تا)، و(بلى فا). وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أن أكلّم انسانا في الظّلمة" (ابن جني أ.، صفحة 208). ومن هنا بان أنّ لغة الجسد تساهم في إيصال المعنى على وجهه الصّحيح، وترفع من شأن الخطاب أو الحوار، وأنّها قد تنقل المعاني التي تعجز عن نقلها العبارات والألفاظ.

فمشاهدة انسان عادي الأحوالَ ذاتها تمكّنه من استيضاح المقصد، على نحوٍ لا يستطيع اللغوي المتخصّص تحصيله، ولذلك لما في الواقعة الاتّصالية من مقابلة العين ومشاهدة الوجوه، ورؤية الحركات الدالّة المقترنة بشدّة الإصغاء، والكلفة بالكلام ممّا يقارن معه بين موقف قراءة الشعر وموقف حضزر الشعر ينشده صاحبه، وكيفيات التبليغ وتحديد المقاصد والأحداث الإنجازية المختلفة وقت الكلام، يقول ابن جنّي في هذا الشّأن:"وبعد، فالحمالون والحماميون، والساسة، والوقادون، ومن يليهم ويعتدّ به منهم، يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه، ولم يحضره ينشده، أوَ لا تعلم أنّ الانسان إذا عناه الأمر فأراد أن يخاطب به صاحبه وينعم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه، فيقول له: يا فلان أين أنتَ أربي وجهك، أقبِل عليّ أحدّثك، أما أنتَ حاضر يا هناه، فإذا أقبل عليه وأصغى إليه اندفع يحدّثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه. وعلى ذلك قال:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدّ إذا كانـا

وقال الهذلي:

رفوني وقالوا: يا خويلد لا ترع فقلتُ – وأنكرت الوجوه– هم هم

أفلا ترى إلى اعتبار بمضاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما في النفوس، وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة" (ابن جني أ.، صفحة 207).

[رفوني بمعنى سكنوني، وقالوا لا بأس عليك، وقوله: هم هم أي هم الذين أخاف].

فالمشاهدة والحضور عند ابن جني يؤدّيان إلى معرفة وجوه الخطاب وتحديد المقاصد والأغراض ما لا تؤدّيه الحكايات ولا تضبطه الروايات، وفي المشاهدة والحضور غناء عن تأويل يعنّى به اللغوي نفسه أو الاضطرار إلى القصود وغوامض ما في النفس. (العبد، الإشارة والعبارة ، صفحة 152).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وممّا يلاحَظ بناءً على ما جاء به ابن جنّي فإنّ الإشارة عنده اسم جامع للإيماءات والحركات والتلويحات ونحوها، فتغني بدلالاتها العرفية عن بعض المنطوقات، يقول:"وكذلك إذا ذممتَ انسانا، ووصفته بالضيق قلتَ: سألناه وكان انسانا، وتزوي وجهك وتقطّبه، فيغني ذلك عن قولك: انسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك".

لعلّنا إذا استنطقنا نصوص التراث –لا سيما تراث الجاحظ وابن جني في الاتّصال بلغة الجسد– لا نكون مغالين إذا قلنا إنّهما منظورات يتكاملان في التنبيه إلى أنّ التّأريخ للسلوكيات الاتّصالية عن طريق لغة الجسد، في الفكر اللغوي والسيميائي الانساني ينبغي له أن يبدأ من التراث التراث العربي منذ وقت مبكّر، سواء من حيث وظائفها قناةً للاتّصال، أو من حيث هي وسيط للدّلالة على المعنى بعامّة، أو من حيث هي إحدى المحدّدات الجوهرية للسياق أو دلالة الحال المشاهدة.

2– وظيفتا اليد والوجه في نقل المهنى وتشخيصه :

2–1 لغة الوجه والجمال في التراث الشعري :

كثيرا ما ترتبط لغة الوجه بموضوع الجمال، حيث غدا للجمال فنّه وقواعده التي تسيّره، ومن ثمّ اهتمّ العرب منذ القدم عند حديثهم عن لوجه –لاسيما النساء– بجمال المرأة وإخفاء عيوبها، ولعلّ شيوع هذه الظاهرة في أوساط النساء الحضريات هو الذي دفع بالمتنبّي إلى القول:

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيـبِ

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوبِ

أفدي ظباء ما عرفنا بهـا مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيبِ

ومن هوى كلّ من ليست مموّهة تركت لون مشيبي غير مخضوبِ

(المتنبي، صفحة 31)، فقد فطن المتنبي بقيمة الوجه وما يؤدّيه من لغة تعرب عن الصورة الحقيقية لحامله، وموطن هويته، وهو الذي من شأنه امتلاك حظوة تمثيل الجسد والتواصل بين الناس. (الزاهي، 1999، صفحة 97). فإذا انتقلنا إلى تراثنا اللغوي بعامّة لم نجده يغفل عن حركات الوجه وتقلباته المرتبطة بأنواع الانفعال، فللعين والطرف وظيفة خاصّة في التعبير، يقول جرير:

فغُضّ الطّرف إنّك من نميْرٍ فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

(الصلوي، صفحة 75)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أو قول الشاعر:

ترى عينُها عيني فتعرف وحيَها وتعرفُ عيني بما به الوحي يرجِع

ومن تعبيرات الوجه قول زهير بن أبي سُلمى:

متى تك في صديق أو عدوّ تخبّرك الوجوهُ عن القلوبِ

(بن أبي سُلمى، 2005، صفحة 17) أو قول العباس بن الأحنف:

يدلّ على ما بالمحبّ من الهوى تقلّب عينيه إلى شخص مَن يهوى

وإنْ أخمر الحبّ الذي في فؤاده فإنّ الذي في العين والوجه لا يخفى

(بن الأحنف، 1986، صفحة 18)، ومن ألطف ما نجده في شعرنا العربي حول هذه المعاني قول أبي تمام:

أليْس عجيباً أنّ بيتاً يضمُّني وإيّاكِ لا نشكو ولا نتكلّمُ

إشارة أفواهٍ وغمزُ حواجب وتكسير أجفانٍ وكفّ يسلّم

ألْسُنُنا ممنوعة عن مرادنا وأبصارنا عنّا تجيبُ وتفهمُ

(أبو تمام، صفحة 462)، وما يهمّا بالدّرجة الأولى ما يخصّ ابن جني في مسألة التعبير بالوجه، إذ ما يفتأ يعلّل لهذه الظاهرة، وما جاء في استشهاداته.

2-2 ارتباط لغة الجسد بالسلوك الحركي لليد والوجه عند ابن جنّي.

إنّ المقصود بهذا المبحث هو يعبّر عنه رفع الحاجبين عند الفزع أو الدهشة، واستعمال حركة الشفتين في ابتسامة باهتة تكنّ سخرية، أو ابتسامة عريضة تنمّ عن سرور، وقد استطاع الشاعر قديما أن يعطينا صورة هذه الصور بقوله:

إذا رأيتَ نيوب اللّيث بارزةً فلا تظنّن أنّ الليث يبتسم

(محجوب، 1986، صفحة 169)

وهو أمر لا نعدم استعماله في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى:" وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(سورة آل عمران، الآية 119.)، والأنامل هي أطراف الأصابع، فالمغتاظ والنادم يوصف بعضّ الأنامل والبنان والإبهام (الزمخشري، صفحة 149/1)، فالصورة التي يرسمها المشهد في هذه الآية الكريمة تعوّل على الوظيفة السيميائية للحركة، وعلى قدرة هذه

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الحركة على نقل المعنويات من غيظ وندم ونحوهما، إلى حركة مرئية، ذات دلالة اصطلاحية معروفة عند المخاطبين، وهو ما يصطلح عليه المفارقة (العبد، المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالية، 2006، صفحة 150)، وهي صفة اصطلاحية لحركة جسمية، فبنية الدلالة للمفارقة في هذه الآية تنهض على التعارض بين الاستجابة والمثير، بين القول والفعل الحركي الذي ينفيه. ومن هنا يبين لنا دور لغة الجسد في نقل الصورة من المعنى إلى المحسوس بصورة أدقّ تجعلنا نعيش المشهد ونعاينه. وهنا نلاحظ أنّ عضّ الأنامل ووضع الأصابع في الأذن وليّ الألسنة وغيرها كلّها علامات حركية، عبّرت عنها لغة الجسد. وممّا نقرأه من شعر يبيّن لغة الجسد وعلاقتها بما يدور حول الوجه واليد ما ورد في صكّ الوجه، وهي حادثة امرأة تشتكي على لسان شاعر:

تقول – وصكّت وجهها بيمينها– أَبعلي هذا بالرّحى المتقاعسُ؟

وقد علّق عليها ابن جني مبيّنا فضل رواية هذه الحركة الجسدية في تعزيز المعنى إذ:"جُعِلت هذه الحركة الجسدية كالمنبهة على فرط التعجّب والإنكار والتعاظم، ولنا أن نتصوّر أنّ ثمّ مخبَرا، وأنّ ثمّ معايِنا لهذا الحدث الكلامي، فمن ذا الذي يقنع اللغوي أنّ دلالة الحدث القارّة في نفس المعايِن هي كالتي عند المخبَر؟ إذ إنّ المعايِن قد كان سمع الصائت، وعاين الصامت، أمّا المخبَر فلم يكن له حظّ إلاّ بالوصف والتّمثيل من الصامت" (عرار م.، البيان بلا لسان ، صفحة 130)، وهو ما يقوله ابن جني:"فلو قال حاكيا عنها: أَبعلي هذا بالرّحى المتقاعسُ؟، من غير أن يذكر صكّ وجهها لأعلَمنا أنها كانت متعجّبة منكِرة، لكنه لمّا حكى الحال فقال: وصكّت وجهها، عُلِم بذلك قوّةُ إنكارها وتعاظُمُ الصورة لها، هذا مع أنّك سامع لحكاية الحال، غيرُ مشاهدٍ لها، ولو شاهدتَها لكنتَ بها أعرفَ، ولِعِظَمِ الحال في نفس تلك المرأة أبيَنَ، وقد قيل: ليس المخبَر كالمعايِن، ولو لم ينقُل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله:"وصكّت وجهها"، لم نعرف به حقيقةَ تعاظمِ الأمر لها" (ابن جني أ.، الخصائص، صفحة 130)، إنها بحقّ لغة الجسد، قد وفّاها ابن جنّي حقّها بحثا، وأنزلها منزلتها دراسة وتبيانا.

خاتمة:

إنّ محاولة ابن جني انطلقت من منظور لغوي أقرب ما يكون إلى نهج السيميائية الاجتماعية، بؤرته معرفة أغراض المتكلّمين ومقاصدهم في ضوء مشاهدة الأحوال، من هنا كانت عناية ابن جني

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الجوهرية بدور المشاهدة في الإلمام بمحدّدات الموقف الاتّصالي المتباينة من خلفيات تاريخية، وما ينتج عن المشاركين من إشارات وسلوكيات حركية مصاحبة للكلام أو متمّمة له أو نائبة عنه أو مساعدة في تفسيره.

وقد كانت للغة الجسد لاسيما العين عند ابن جني وظيفة الإفصاح والإبانة عمّا في النّفس، فتشكّل معنى في النفس غير الذي تريد البوح به

لقد أولى الباحثون قبل ابن جني ومنذ وقت مبكّر عنايةً مركّزة بلغة الحركات والإشارات التمثيلية والتعبيرات الجسدية وجعلوها نيابة عن النطق أو الكلام إذا استعصى التصريح، وقد وُجِد في شعرنا العربي ما يؤكّد هذا ولم يكن ابن جني بمعزل عن السابقين في هذا المضمار.

بالنسبة لابن جنّي فإن الوجه بكل تعبيراته يمثّل دليلا على ما في النّفوس فهو يُلح إلحاحا بينا على دلالته في التواصل والإبانة.

قائمة المصادر والمراجع :

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

01-البيان بلا لسان- دراسة في لغة الجسد، مهدي أسعد عرار، (2007م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

02-جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية-"دراسة دلالية ومعجمية"، محمد محمد داود،(2006م)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

03-الجسد والصورة، فريد الزاهي، (1999م)، أفريقيا الشرق، ط01، الدار البيضاء، المغرب.

04-خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي(1986م)، تحقيق عبد السلام هارون، ط01، مكتبة الخانجي، القاهرة.

05-الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، (2006م)، حقّقه: محمد علي النجار، ط01، عالم الكتب، بيروت.

الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة و النشر، بيروت.

06-دراسات في علم اللغة، فاطمة محجوب، (1986م)، النهضة العربي، القاهرة.

07-ديوان أبو تمام، أبو تمام، فسّر ألفاظه ووقف على طبعه: محيي الدين الخياط، دت، دط، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

08-ديوان أبي نواس، (1962م)، أبو النواس الحسن بن هانىء، دار بيروت، بيروت.
09-ديوان جرير، جرير، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين.
10-ديوان زهير بن أبي سُلمى، زهير بن أبي سُلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، (2005م)، ط02، دار المعرفة، بيروت.
11-ديوان العباس بن الأحنف، (1986م)، العباس بن الأحنف، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
12-ديوان علي بن الجهم، علي بن الجهم، تحقيق: خليل مردم بك، دار الآفاق، بيروت .
13-ديوان المتنبي، أبو الطيب المتنبّي، دط، دت.
14-روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، (1987م)، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت.
15-زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم الحصري القيرواني،(1997م)، تحقيق يوسف طويل، دار الكتب العلمية، بيروت.
16-شرح ديوان جرير، محمد إسماعيل عبد الله الصاوي، دت، دط، المكتبة التجارية، مصر.
17-صحيح مسلم، الإمام مسلم، كتاب الإيمان، رقم 37.
18-طبائع النساء، مختارات من العقد الفريد، ابن عبد ربّه، تحقيق: محمد سليم إبراهيم، مكتبة القرآن، بيروت.
19-العبارة والإشارة - دِراسة في نظريّة الاتِّصال، محمد العبد، (2007م)، مكتبة الآداب، القاهرة، ط02.
20-العقد الفريد، ابن عبد ربّه، (1996م)، شرح أحمد أمين، وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، دار الأندلس، بيروت.
21-*العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، أبو الحسن بن رشيق، (2005م)، حقّقه وفصّله: محمد محيي الدين، ط01، دار الطلائع، القاهرة.
22-*غريب الحديث*، ابن الجوزي، (1985م)، تحقيق، عبد المعطي أمين قعلجي، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

23-*فقه اللغة وسرّ العربية*، أبو منصور الثعالبي،(2008م)، تحقيق جمال منصور، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت.

24-*كتاب الفرق*، الأصمعي،(1987م)، دار أسامة، بيروت.

25-*الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل*، أبو القاسم الزمخشري، دت، دط، دار المعرفة، بيروت.

26-*اللغة الجسدية للمثل*، مدحت الكاشف، (1996م)، أكاديمية الفنون والأهرام التجارية، مصر.

27-*المساحة الفارغة*، بيتر بروك، (1986م)، ترجمة: فاروق عبد القادر، دار الهلال، القاهرة.

28-*المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة*، محمد العبد، *(2006م)، ط02*، مكتبة الآداب، القاهرة.